HERMÈS TRISMÉGISTE ET LA CRISE DU RATIONALISME

ETIEMBLE

هرمس مثلث العظمات وأزمة المذهب العقلى

إن الضجة الكبيرة التى تثار حول الآثار التافهة أو الضارة تحول دون بلوغ الأصوات الصحيحة أسماع البشر . ويبدو لى أن الأثر الأخير للأب فستوجيير Festugière وعنوانه « حقيقة هرمس مثلث العظمات » *La Révélation d'Hermès Trismégiste* لم يقابل بما كان خليقا أن يقابل به مثل هذا العقل النير الذى ينتظم كل تلك المعلومات . ومع أن الجزء الأول « التنجيم والعلوم الخفية [1] » هو الوحيد الذى ظهر من مجموعة كتب ثلاثة كان لا بد أن تكون على غاية من الأهمية ، فان المقدمة الغزيرة التى تقع فى ٩٠ صفحة تلقى الضوء على مشروع الأثر فى جملته وتساعد على التكهن بماسيكون عليه الأثر إذا ما أنجز .

ولست أملك أن أمتدح أو أن أذم قيمة الاطلاع العلمى فى مؤلف « هرمس مثلث العظمات » ، غير أنى كنت أذكر أفضاله لواحد من كبار علمائنا فى آثار البزدى وهو الأستاذ جان شيرير المدرس بجامعة فؤاد الأول ، فكتب لى نقول : « إن « هرمس » فستوجيير ربما كان خير مؤلف ظهر أثناء الحرب . إن الذين اتصلوا بتلك النصوص المروعة ليقدرون مثل هذا المجهود فى سبيل الايضاح . » وكنت أنا أحس بذلك قبلغ الاحساس منى اليقين . والجزء مزود بملحق كتبه لويس ماسينيون بعنوان

---

* هذا المقال كتب خاصة لمجلة «الكاتب المصرى» .

(١) الناشرون : جابلدا ، باريس ١٩٤٤

« بيان عن الأدب الهرمسى العربى » ، ويعتبر أول مجموعة من مراجع علم لم يستكشف بعد . ولو أن كل فضل « هرمس المثلث العظمات » انحصر فى عرض وترجمة وشرح النصوص المنسوبة إلى توت — هرمس ، ونشر بيان بالأدب الهرمسى العربى ، فانه مع ذلك يستدعى اهتمام الأدباء الشرقيين ، فسيجد فيه علماء اليونانية والعربية وعلماء اللاهوت والفلاسفة مواد نادرة غزيرة يجولون فيها بنافذ بصيرتهم التخصيصية .

غير أن للكتاب مزايا أخرى ؛ فهو يحلل لغير الاخصائيين وللمثقفين أزمة اللاعقلية التى اجتاحت العصر الهلينستى ، حين انتشر فى العالم اليونانى الرومانى « عدد من الحكم السماوية التى كانت تنسب إلى بعض مجوس فارس (زورواستر وأوستانس وهمستاسب) أو تنسب إلى أحد آلهة (توت — هرمس) ، أو إلى المنجمين القادمين من كلدانيا ، بل كانت تنسب أيضاً إلى أنبياء أو فلاسفة من اليونان كانوا أكثر من غيرهم قرباً إلى الأمور الالٰهية . ذلك أن الفيثاغورية والأورفية قد عادتا إلى الازدهار من جديد فى ذلك الحين . » وقد ساد وقتئذ ما هو جدير حقا بأن يسمى بدعة . فبعد وفاة القديس سيبريان الأنطاكى باحدى وعشرين ومائة سنة ، كتب القديس جريجوار دى نازيانس يمدحه فقال إنه درس السحر فى مصر مدة طويلة ، وفى كلدانيا تعلم الفلك . وإنا لنجد متعة فيما نحا إليه الكاتب من خلط بين حياة القديس وبين الحياة النظرية الخرافية التى كان لابد أن يحياها رجل تقى يرمى إلى التأثير فى عقول أبناء عصره. فاذا كان مثل القديس سيبريان قد أخذ بالهرمسية ، فلا موضع للدهش إذا قيل إن توت هرمس هو صاحب رسائل التنجيم ، ونظريات الكيمياء الكاذبة ، والمؤلفات السحرية ، وكل ما كانت الأذهان المتعارضة مع العقل تعتبره حينئذ علما .

وقد سرت عدوى مؤلفات مثلث العظمات فى الجزء الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط بتلك السرعة التى تتوالد بها خلايا السرطان . وكان كل من أراد لفكرته أن تذيع وتسود ، ينشرها تحت اسم الاله توت . وقد فسر زوزيم مثلث العظمات بالطريقة الثلاثية لما هو منتج وما هو منتِج » ، كما فسره أحد المشتغلين بالكيمياء الكاذبة بطريقة مختلفة إلا أنها ليست أقل جزما : فقيل إن هرمس مثلث

العظمات لأنه يصنع الذهب « على خطوات ثلاث من خطوات الطريقة العملية» وليفهم من استطاع إلى الفهم سبيلا ! مع أن الحقيقة على بساطتها ليست أقل روعة ؛ ففى اللغة المصرية القديمة يعبر عن صيغة التفضيل بتكرار الصفة نفسها . فاذا كانت آ آ معناها كبير فكلمة آ آ آ معناها كبير جدا . وترجمتها باليونانية μέγας καὶ μέγας (عظيم وعظيم) غير أن من طبيعة اللغات أن تبلى . لذا حدث منذ القرن الثانى مع أن معنى التفضيل لكلمة μέγας المكررة قد نسيه الكتاب وأغفلته الشعوب . ومن وقتئذ ظهرت فى الأدعية والابتهالات عبارة μέγιστος καὶ μέγιστος (عظيم وعظيم) أوعبارة μέγιστος καὶ μέγιστος καὶ μέγιστος (عظيم جدا وعظيم جدا وعظيم جدا) أى مكررة ثلاثا ، لما كان للعدد ثلاثة من تأثير سحرى ، ومعناها τρισμέγιστος أى هرمس الأعظم ثلاث مرات ، أى هرمس العظيم جدا ثلاث مرات ، أى هرمس مثلث العظمات Hermès Trismégiste . (وذلك رغم أنف كل من يتأثر بمقاطع الألفاظ ويحملها معانى سحرية كلفظتى أبركساس أو أبراكادابرا !)

والأب فستوجيير يقيم الدليل على أننا يجب أن نصدق حقيقة الكتابات الهرمسية بقدر ما نصدق ما شاع من خرافات حول أصل تسمية الاله الساحر أو ما يرمز إليه . وإذا كان اللاعقليون يقولون إن ما نسب من مؤلفات إلى هرمس قد انتقل منذ عام ٤٨ — ٨٦٣ قبل الاسكندر ، إلى داخل الجمعيات الدينية أو الصوفية التى اتخذت منه فرائض صلاتها ، فالأب فستوجيير على نقيض ذلك يرى فى هذه الآثار التى تتضمن عقائد متنافرة وتشمل مبادئ متناقضة ، مظاهر لنوع أدبى بحت . « فرؤيا الله » لدى أشياع هرمس فى القرن الثانى ، قد لعبت نفس الدور الذى لعبته بدعة « أوصاف الأشخاص » portraits فى عصر الملك لويس الرابع عشر .

ولا يقتصر المؤلف على وصف أعراض الداء بل ينقب عن أسبابه : ففى القرن الثانى من المسيحية « انهارت أركان العقل والجدل والمذهب الانسانى من كل النواحى ، واختلطت تحت أنقاضها فى عاصفة هوجاء كل القوى اللاعقلية ، فاذا بالاضطراب يعترى كل هذه الأرواح وكل هذه الأبخرة التى كان يستحضرها فن النبى والمجوسى والكيميائى الكاذب

ومناجى الموتى . » وقد عم الرخاء ذلك العصر ، كما سادت فيه بقدر ما كان منتظراً رفاهية مادية أعظم بكثير مما كان فى العصور السابقة . والمؤلف يسائل نفسه عن السبب الذى من أجله « لم يعرف القرن الثانى نهضة عقلية حقة ، والذى من أجله كانت قوة الفكرة ووضوحها فى هبوط متصل » . والذى من أجله بموجز القول « لم يصحب الرضاء المادى العظيم الذى كان ينعم به العالم فى ذلك الحين ، ازدهار يماثله فى الانتاج العقلى » . إن هذه الظاهرة التى تعد بحق من أهم الظواهر فى تاريخ البشر ؟ من العبث أن نبحث عن أسباب لها آلية أو اقتصادية بحتة . والحقيقة مهما تكن مخيبة للرجاء ، هى أن المذهب العقلى اليونانى الذى كان يسود الفكر حينئذ ، هدم نفسه بنفسه فى عنف وقوة . « وبما أن العقل فعلا تحرر وأخذ يتيه كما يشاء دون أن يجد الضابط الطبيعى له فى نظرة أعمق وأصلح للعالم المحسوس ، فكان لابد أن هذه القوة المنطقية نفسها التى استخدمت فى إقامة البناء ، استخدمت كذلك فى هدمه . » لاشك أن أفلوطين ومدرسته حاولا إنقاذ

يستسلموا للسحر ، فأسرار العلوم الالهية وطقوس السحر تتغلب حتما على الفكر المنطقى المجرد ، المثالى فى منطقه ، والذى لم يتمكن من الاستزادة باختبارات لا تنفك تتجدد ويعاد البحث فيها ، فينتهى به الأمر إلى فقد حيويته ثم إلى ضعفه ثم إلى تلاشيه .

إن فيثاغورية تحكمية αὐτὸς ἔφα كما قال فيثاغور نفسه ، ونظريات مجازفة عن الأعداد ، كانت تكفى لارضاء رجل القرن الثانى الذى كان لا يجد هذا الرضا نفسه فى عقل معقم ، فكان من نتيجة ذلك ما رأيناه من ظهور دين ، هو دين خلاص ، ومن ظهور عذراء الاسكندرية هيباتى Hypathie العالمة الحكيمة التى قتلها المسيحيون (٣٩٠) .

وماذا نرى اليوم ؟ نرى من ناحية العقليين التحكميين الذين تميزوا بالجفاف أمثال جوليان بندا Julien Benda ، فهم لا يعترفون بالتفكير إلا فى الفكر نفسه ، وهم إذا كتبوا عن « دورة الصفوة » circulation des élites فى الولايات المتحدة اعتقدوا أنهم يفقدون قدرهم بدراستهم الظواهر التى تقيم الدليل على أن عامل

لا أثر له فى أمريكا . أما أصحاب « المذهب العقلى الحديث » أو بمعنى آخر الماركسيون الراشدون ، فهم أكثر اهتماما بالتجارب ، إن لم يكن فعلا فمبدئيا على الأقل . وهم يبدون بالفعل الاحتقار نفسه للتجارب أو الملاحظات التى تسئ إلى مبادئهم . وهم يذهبون إلى حد إثبات أن المذهب العقلى الحديث يخلص الانسان من الموت . ذلك لأن الموت ما هو إلا النفى « المنطقى » L'antithèse dialectique للحياة . ليس هذا رأى كل الذين صدموا بجفاف فكرة نظرية اجتهادية وبالتالى غير إنسانية، ومازالوا يناشدون اليوم هرمس كما ناشدوه بالأمس لتبديد قلقهم .

وقد لاحظت فعلا من قراءتى الآثار الأخيرة لأندريه بريتون ، أن زعيم مذهب السيريالزم يمنح يوماً بعد يوم نصيبا أكبر وأخطر لعلم الغيب والعلوم الخفية من سحر وتنجيم وللسنة الهرمسية. وقد أنشأ قصيدة كاملة « الساحرة مرجانة » *Fata Morgana* على نغمة « مومياء إيبيس » . وهو يأخذ على عاتقه قصة « أوزيريس إله أسود » ويأخذ أيضا بأتفه التفاصيل ما دامت هذه التفاصيل مقتبسة من مؤلف « هرمسى » . ولما كان الحرفان الأولان من اسمه ولقبه A و B قريبى الشبه فى توقيعه بالعددين ١٧ و ١٣ ، فهو يعتقد أنه نذر لأن يتأثر بسيالات هذين العددين ، فتراه يكتب ركن ١٧ Arcane 17 ، ثم يواصل بالتدريج هذه النظرية الرقمية الغريبة حتى يأخذه الهذيان إلى درجة انشاء منهج ، وحتى يصل به التفكير إلى أبواب الجنون . ونجد فى كوبا تلميذه الرسام ولفريدو لام ، ينشئ لوحة تحت عنوان « هرمس مثلث العظمات » مع أن مضمونها التشكيلى لايستدعى مطلقا هذا العنوان الذى وضع فى غير موضعه .

« ليسقط العقل » تلك صيحة ما زال يرددها فى كل مكان تقريبا عدد كبير من الشبان الذين يحلفون بهرمس وبالاكتو بلاسما وبالنضد الدائرى . ونحن نخطئ إذا استخففنا بهذا التطور الأخير لمدرسة السيريالزم ، فهو يكشف فى القرن العشرين عن القلق نفسه الذى شاهدنا آثاره فى القرن الثانى . ولم ينخدع بذلك رجال الدين؛ فمع أن الكنائس تُدين الأنظمة الهرمسية ، فنحن نرى الذين يصيدون النفوس فى الماء العكر يهنئون أنفسهم بهذا الميل المعاصر للعلوم الخفية ؛ فهو فى اعتقادهم يبشر بالعودة إلى التقاليد المتوارثة

«وبالأصح إلى التقاليد المسيحية» [1] .

وبدلا من الاستسلام لتلك المغريات ، يجدر بالانسان اليوم أن يرد للعقل اعتباره فى كامل قوته وتنوع رسالته هذا التنوع العجيب . وإذا كان اللاعقليون قد نجحوا فى إعلان بطلان هذا العقل الواهى القُوى الذى يدمر نفسه بنفسه ، فهم لم يتوصلوا حتى الآن إلى نقد العقل الآخر نقدا ذا خطر ، كعقل ديكارت هذا الذى كان يقدر العواطف ، وعقل ديدرو هذا الذى كان يتعهدها تعهداً متصلا ، وهذا العقل الذى أتاح للانسان أن يحطم الذرة ، وأن ينشئ مذهباً أخلاقيا لنفسه . فليس هرمس على أية حال هو الذى عثر على البنسلين بل الدكتور فلمنج . وليس توت هرمس هو الذى ألقى الضوء على حقيقة ميولنا بل سيجموند فرويد وغيره . وليس يوحنا ورؤيته هما اللذان ساعدانا على تفهم اللاعقليات بل جيمس فريزر وأثره « غصن الذهب » *Rameau d'Or* .

وقد كتب جان بولان : « يوجد نوعان من الفهم (أو من المذهب العقلى) : الأول يكتفى بأن يطبق تطبيقاً دقيقاً بعض القواعد — وهى ميتافزيقية غالباً — وضعت فى أول الأمر بدون أى برهان أو إقامة أدنى دليل . ولكن هناك فهماً آخر (أو مذهباً عقليا آخر) ، يتبع الملاحظة البطيئة والتجربة المنظمة ، ويحاول أن يستنتج بعض قوانين ، ويجتنب التحيز والتعصب مهما كانا مغريين ، ويمتنع عن الاستنتاج ما وسعه الامتناع . وإنى أود أن يكون ذلك مذهبى . »

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكم

---

(١) جى ميشو « الرسالة الرمزية » باريس ، نيزيه ١٩٤٧ .